

المطلب الأول: بناء سيدنا إبراهيم ► ودعوته الكريمة

أولاً: بناء سيدنا إبراهيم ►

يعد بناء سيدنا إبراهيم ► للكعبة الشريفة المرحلة الأولى لتأسيس مكة المكرمة بعد اختفاء أثرها⁽¹⁾، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك البناء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽²⁾، فلما أمر الله تعالى نبيه إبراهيم ► أن يخرج من الشام إلى موضع البيت الحرام بإسماعيل وأمه هاجر- وكان سيدنا اسماعيل ► آنذاك طفلاً- خرج معه سيدنا جبريل ► يده على موضع البيت ومعالم الحرم، فلما بلغها- وكانت آنذاك عضاه⁽³⁾ من سلم⁽⁴⁾ وسمر⁽⁵⁾ وبها ناس يقال لهم العماليق خارجاً من مكة فيما حولها والبيت يومئذ حمراء مدرة⁽⁶⁾- فقال سيدنا إبراهيم ► لسيدنا جبريل ►: أهاهنا أمرت أن أضعهما⁽⁷⁾؟ قال: نعم، فأنزلهما سيدنا إبراهيم ► في موضع الحجر، ثم انصرف إلى الشام⁽⁸⁾.

فلما أمره الله تعالى أن يبني البيت جاء إلى اسماعيل فوجده يبني نبلاً قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بولده والولد بوالده، ثم قال سيدنا إبراهيم ►: يا إسماعيل إن الله ﷻ قد أمرني بأمر، قال: فأطع ربك فيما أمرك، قال: وتعينني؟، قال: وأعينك، قال: فإن الله تعالى قد أمرني أن أبني له بيتاً هاهنا، فعند ذلك رفع إبراهيم ► القواعد من البيت، فكشف عن الأساس الذي وضعه بنو آدم، ثم شرع يبني واسماعيل يناوله، فلما بلغ موضع الحجر قال لاسماعيل: اذهب فالتمس حجراً أضعه هاهنا

(1) أي: بعد اختفاء أثر بناء آدم ► لها، وإنما عُدَّتْ بناء سيدنا إبراهيم ► المرحلة التأسيسية لمكة ولم أعد بناء سيدنا آدم ► لأن الكعبة الشريفة لم يختفِ أثرها بعد بناء سيدنا إبراهيم ►، وإنما كان أمرها في تطور من خلال تجمع الناس حولها واستمرت هكذا حتى زمن النبي ﷺ وإلى يومنا هذا.

(2) سورة البقرة، آية: 127.

(3) العضاه: شجر له شوك. ابن منظور، لسان العرب: مادة (عضه): 516/13.

(4) السلم: نوع من العضاه. المصدر نفسه: مادة (سلم): 296/12.

(5) السمر: ضرب من العضاه. وقيل: من الشجر صغار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يأكلها الناس وليس في العضاه شيء أجود خشباً من السمر. المصدر نفسه: مادة (سمر): 379/4.

(6) المدر: قطع الطين اليابس. المصدر نفسه: مادة (مدر): 162/5.

(7) أي: سيدنا اسماعيل والسيدة هاجر عليهما السلام.

(8) الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشد الصالح ملحق، مطابع ماتيوكرومو، مدريد- إسبانيا: ج1/ص54-

ليهدي الناس به، فذهب اسماعيل، وجاء جبريل بالحجر الأسود، فلما رجع اسماعيل قال لأبيه: من أين لك هذا الحجر؟ قال: من عند مَنْ لم يتكل على بنائي وبنائك⁽¹⁾.

وأما صفة بنائها فقد بناها سيدنا إبراهيم ► بحجارة بعضها فوق بعض من غير طين وجص، وحفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبر يلقى فيها ما يهدي إليها تكون خزانة لها، وكان عمقها ثلاثة أذرع، ولم يجعل للكعبة سقفاً ولا باباً من خشب أو غيره، وإنما ترك لمكان الباب فتحةً في جدارها الشرقي للدلالة على وجه البيت، وقد جعل لها ركنين فقط: الركن الأسود، والركن اليماني، ولم يجعل لها أركاناً من جهة الحجر بل جعلها مدورة على هيئة نصف دائرة كجدار الحجر، وقد كان بناء سيدنا إبراهيم ► للكعبة من خمسة جبال: من طور سيناء، وطور زيتاء، ولبنان، والجودي، وحراء، وكانت الملائكة تأتيه بالحجارة من تلك الجبال، وجعل الحجر إلى جنبها عريشا من أراك تفتح به غنم اسماعيل ►، فكان زرباً لغنمه وجعل الباب لاصقاً بالأرض وغير مبوب، وجعل ارتفاعه من الأرض في السماء تسعة أذرع، وجعل عرض جدار وجهها الذي فيه إثنين وثلاثين ذراعاً، وعرض الجدار المقابل له واحداً وثلاثين ذراعاً، وعرض الجدار المقابل له عشرين ذراعاً⁽²⁾.

وأما مقام إبراهيم ► فإنه لما كان سيدنا إبراهيم ► يبني البيت ارتفع البنيان وشق عليه تناوله، ففزع إليه سيدنا اسماعيل ► هذا الحجر فكان يقوم عليه ويبنى ويحوله في نواحي البيت، فأراد الله أن يجعله آية فبقي أثر قدمي سيدنا إبراهيم ► فيه⁽³⁾.

أول بيت

وقد حاز المسجد الحرام فضل السبق والأولية، قال تعالى ► إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ⁽⁴⁾، وللمفسرين عدة أقوال في المراد بقوله "أول بيت" نقلها الطبري، منها قول مجاهد (ت: 102هـ): (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا)⁽⁵⁾، في حين قال السدي: (أما

(1) الأزرق، أخبار مكة: 1/58-62.

(2) الأزرق، أخبار مكة: 1/63-64. باختصار، وينظر: المالكي، محمد بن علوي، في رحاب البيت الحرام، ط6، المدينة المنورة، 1421هـ-2000م: ص14-15.

(3) ينظر: الأزرق، المصدر السابق: 2/33-36.

(4) سورة آل عمران، آية 96.

(5) الطبري، تفسير: 8/4.

أول بيت، فإنه يوم كانت الأرض ماءً وكانت زبدَةً على الأرض فلما خلق الله الأرض خلق البيت معها، فهو أول بيت وضع في الأرض⁽¹⁾، وفي رواية عن مجاهد وقتادة: (لم يوضع قبله بيت)⁽²⁾.

ثم قال الطبري: (والصواب من ذلك ما قال جل ثناؤه فيه إنَّ أول بيت مبارك وهدى وضع للناس للذي ببكة، ومعنى ذلك: إنَّ أول بيت وضع للناس، أي: لعبادة الله فيه مبارك وهدى: يعني بذلك وماً بآباً لنسك الناسكين وطواف الطائفين تعظيماً لله وإجلالاً له، للذي ببكة)⁽³⁾.

قلت: إنَّ أريدَ بقوله "أول بيت": موضع البيت، أي: أرض مكة، فهي أول موضع من الأرض خلقه الله كما مر في شرح معنى اسم "أم القرى"، وإنَّ أريدَ بالبيت "الكعبة" فيكون المعنى حينئذ: أول بيت وُضع لعبادة الله، وليس أول بيت مطلقاً، وهو ما أميل إليه.

والله أعلم.

الآيات البيّنات

ومما أثنى به سبحانه وتعالى على بيته قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...﴾⁽⁴⁾، قال الطبري: (فيه علامات من قدرة الله وآثار خليله إبراهيم، منهنَّ أثر قدم خليله إبراهيم في الحجر الذي قام عليه)⁽⁵⁾، وقال ابن كثير: ("آياتُ بينات"، أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ)⁽⁶⁾، وذكر الطبري ثلاثة أقوال في معنى الآيات البيّنات، منها⁽⁷⁾:

أ- أنها مقام إبراهيم والمشعر الحرام.

ب- مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً.

ج- مقام إبراهيم وحده.

ثم رجح أن المقام هو أحد تلك الآيات مجتمعةً، وأن منها الحجر والحطيم⁽⁸⁾.

(1) المصدر نفسه: 8/4.

(2) القرطبي، تفسير: 89/4.

(3) الطبري، تفسير: 8/4.

(4) سورة آل عمران، من الآية: 97.

(5) الطبري، المصدر السابق: 11/4.

(6) ابن كثير، تفسير: 384/1.

(7) تنظر هذه الأقوال: الطبري، المصدر السابق: 11/4.

(8) الطبري، المصدر نفسه: 11/4.

قلت: وموضع قدمي سيدنا إبراهيم ► هو مقام إبراهيم لكننا نستطيع القول أن البيت كله مقام؛ لأن سيدنا إبراهيم عندما ارتقى ذلك الحجر ليتم بناء البيت فإن الحجر دار به حول البيت ليتمها جميعاً، أي: قام عليه في جهات البيت جميعاً، ثم استقر في موضعه الأخير.

ثم إن الآيات البيّنات كثيرة فمنها مقام إبراهيم، ومنها الحجر الأسود، ومنها الركن اليماني، والملتزم، والمستجار، والحجر، والميزاب، إذ هي مواطن للمغفرة، ومن دعا فيها وجد من الله الإجابة واضحة بينة.

ويبدو لي أن المقام خُصَّ بالذكر؛ لأنه آية عظيمة انطوت على عدة آيات ذكرها العلماء، هي (1):

- 1- أثر القدمين الشريفتين في الصخرة آية.
 - 2- وغوصهما فيها إلى الكعبين، آية.
 - 3- وإلانة هذا النوع دون بعض، آية.
 - 4- وارتفاع المقام لإبراهيم الخليل في السماء حين ارتفع بالبناء آية، وكذلك حين علاه للأذان بالحج حتى كان كأطول جبل.
 - 5- وإبقاؤه على مر الزمان آية.
 - 6- وحفظه ألوف السنين من الأعداء مع كثرتهم وشدة عدائهم، آية.
 - 7- المقام معجزة لإبراهيم ► ودليل على نبوته، آية.
 - 8- أنه لا تخلو لحظة من اللحظات من قائم وراكع وساجد خلف المقام، آية.
- قلت: ومنها أن من نظر إليه بعين البصيرة أصابه شيء من نوره، وذلك من بركة قدمي سيدنا إبراهيم ►.

- ثانياً: دعوات سيدنا إبراهيم ►

ذكر لنا القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم ► دعا لمكة عدة دعوات، وقد ظهرت إجابتها كلها فيما بعد على أرض مكة المكرمة، وأهمها:

1- أن تكون بلداً آمناً وحراماً: لقد ألهم الله تعالى أنبياءه كل ما يصلح البلاد والعباد، ولما كانت منحة الأمن أعظم مزية يمنحها الله، ولا تنهض البلدان إلا بها، ولا تتيسر معاشها إلا في أفيائها، فقد كانت أول دعوة دعا بها سيدنا إبراهيم ﷺ ملكة وأهلها بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾⁽¹⁾، قال الشوكاني: (المراد بالبلد هنا: مكة، دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمناً، أي: ذا أمن، وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء من أمور الدين والدنيا)⁽²⁾.
وقد اختلف العلماء في مكة هل صارت حراماً آمناً بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك؟ على قولين⁽³⁾:

أحدهما: أنها لم تنزل حراماً من الجابرة المسلطين، ومن الخسوف والزلازل وسائر المثلات التي تحل بالبلاد، وجعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى، ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها، فيجتمع فيها الكلب والصيد، فلا يهيج الكلب الصيد، ولا ينفر منه، حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب⁽⁴⁾.

والثاني: إن مكة كانت حلالاً قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد وإن بدعوته صارت حراماً آمناً، كما صارت المدينة بتحريم رسول الله ﷺ آمناً بعد أن كانت حلالاً.

احتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال، قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: ﴿إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ فِيهِ الْقِتَالُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَعْصِدُ شَوْكُهُ وَلَا يَنْفِرُ صَيْدُهُ، وَلَا تَلْتَقُطُ لَقِطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا وَلَا يَخْتَلِي خِلَافَهَا، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخَرُ فَإِنَّهُ لَقِينَهُمْ وَيَبْغُونَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: إِلَّا الْإِذْخَرُ⁽⁵⁾.

(1) سورة إبراهيم، من الآية: 35.

(2) المناوي، فتح القدير: 112/3.

(3) ينظر هذان القولان وتوجيه كل منهما: القرطبي، تفسير: 80/2-81.

(4) ينظر: الجصاص، أحمد بن علي الرازي (ت: 370هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ: ج1/ص91.

(5) البخاري، الصحيح: 651/2 رقم 1736، ومسلم، الصحيح: 968/2 رقم 1353.

واحتج أهل المقالة الثانية بما روي عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمَ مَكَةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمَدَهَا بِمِثْلِي مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ مَكَةَ﴾ (1).

قال ابن عطية: (ولا تعارض بين الحديثين؛ لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان. والثاني: إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهار ذلك بعد الدثور، وكان القول الأول من النبي ﷺ ثاني يوم الفتح إخباراً بتعظيم حرمة مكة على المؤمنين بإسناد التحريم إلى الله تعالى، وذكر إبراهيم عند ذكر المدينة مثلاً لنفسه ﷺ ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضاً من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه) (2)، وقال الطبري: (كانت مكة حراماً فلم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأل إبراهيم فحرمها) (3).

قلت: وتوجيه ابن عطية توجيه حسن؛ لأمرين:

أحدهما: إِنَّ الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) لا يتحركون ولا ينطقون إلا بأمر من الله، فتحريم سيدنا إبراهيم ﷺ يعني تحريم الله.

والآخر: إِنَّ الله تعالى إذا خص مخلوقاً بشيء ما فإن تلك الخصوصية تبقى غيباً حتى يظهرها الله على لسان أحد خواصه الذين علمهم الله ذلك.

2- أن تصبح مهوى الأفئدة: ولما رأى سيدنا إبراهيم ﷺ الرحمت التي تنزل على مكة وكان حريصاً على أن لا يفوت المؤمنين ذلك الخير دعا ربه بقوله: ﴿فَجَعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ...﴾ (4)، قال ابن عباس ومجاهد: (لو قال "أفئدة الناس"؛ لازدحم عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال "من الناس" فهم المسلمون، فقوله "تهوي إليهم"، أي: تحن إليهم وتحن إلى زيارة

(1) مسلم، المصدر نفسه: 991/2 رقم 1360.

(2) القرطبي، تفسير: 81/2، وينظر: المقدسي، أبو عبد الله محمد بن مفلح (ت: 762هـ)، الفروع، تحقيق: أبو الزهراء حازم القاضي، ط1، دار الكتب

العلمية، بيروت، 1418هـ: ج3/ص349.

(3) الطبري، تفسير: 543/1.

(4) سورة إبراهيم، من الآية: 37.

البيت⁽¹⁾، وقال البروسوي: (تسرع إليهم شوقاً، وتطير نحوهم محبةً)⁽²⁾، وقال الشيخ حسنين محمد مخلوف: (تسرع إليهم شوقاً ووداداً، يقال: هوى يهوي هُويّاً: إذا أسرع في السير. أو تريدهم، كما تقول: رأيت فلاناً يهوي نحوك، أي: يريدك)⁽³⁾.

قلت: وفي التعبير بلفظة "تهوي" إيحاءٌ روحيٍّ جميل جداً حتى كأن أفئدة المحبين المؤمنين تطير من أقصى الأرض لتقع في البقاع المقدسة، وَمَنْ كان قلبه في بلدٍ وجسمه في بلد كيف يصبر على الفراق؟!، أم كيف يقر له قرار ما لم يبلغ تلك الديار؟! ولذلك أخبر سبحانه أنه استجاب لدعوة سيدنا إبراهيم ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ...﴾⁽⁴⁾، قال الطبري: (وإذ جعلنا البيت مرجعاً للناس ومعاذاً يأتونه كل عام فلا يقضون وطراً)⁽⁵⁾، وقال القرطبي: (لأنه قلَّ ما يفارق أحدُ البيتِ إلا وهو يرى أنه لم يقضٍ منه وطراً، فإن قيل: ليس كل من جاءه يعود إليه، قيل: ليس يختص بمن ورد عليه وإنما المعنى إنه لا يخلو من الجملة ولا يعدم قاصداً من الناس)⁽⁶⁾.

وقد بقيت آثار تلك الدعوة المباركة حتى عند أهل الجاهلية، فحين أجلت خزاعةُ جرهماً عن مكة، قال عمرو بن مضاخ الجرهمي:

كأن لم يكن بين الحجون ⁽⁷⁾ إلى الصفا	أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرٌ
ولم يتربع واسطاً ⁽⁸⁾ فجنوبه	إلى المنحنى ⁽⁹⁾ من ذي الأراكاة ⁽¹⁰⁾
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا	صروف الليالي والجدود العواثرُ
وبدلنا ربي بها دار غربة	بها الذيب يعوي والعدو المحاصرُ ⁽¹¹⁾

(1) القرطبي، تفسير: 245/9.

(2) البروسوي، روح البيان: 427/4.

(3) حسنين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، ط3، اللجنة الوطنية لتنظيم الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري، الإمارات العربية المتحدة، 1402هـ-1982م: ص331.

(4) سورة البقرة، من الآية: 125.

(5) الطبري، تفسير: 532/1.

(6) القرطبي، تفسير: 76/2.

(7) الحجون: هو الجبل المشرف على مسجد الحرس بأعلى مكة. ينظر: هامش الحق على أخبار مكة للأزرقي: 95/1.

(8) واسط: جبل أسفل من جمرة العقبة. ينظر: المصدر نفسه: 95/1.

(9) المنحنى: مكان مرتفع واقع في منتهى شارع البياضية على يمين الصاعد إلى منى. ينظر: المصدر نفسه: 95/1.

(10) وادي الأراكاة قرب ثمة. ينظر: المصدر نفسه: 95/1.

(11) الأزرقي، أخبار مكة: 95-96.

3- أن تجي إليها الثمرات: كانت مكة المكرمة عبارة عن وادٍ غير ذي زرع، فدعا لها سيدنا إبراهيم **﴿بقوله: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...﴾﴾**⁽¹⁾، قال البروسوي: (من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك، أو يجي إليه من الأقطار البعيدة، وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد)⁽²⁾، وقال الشيخ عبد الكريم المدرس: (من الثمرات التي تجلب إليها من النقود المعدنية: الذهب والفضة والأقوات والأدهان والألبسة والفرش والمواein وسائر الأشياء المحببة للناس)⁽³⁾.

وقد أخبرنا سبحانه وتعالى بآثار إجابته لتلك الدعوة فقال: **﴿...أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**⁽⁴⁾، قال القرطبي: (أي: يجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد)⁽⁵⁾.

قلت: وأعظم الثمرات هي الثمرات المعنوية الروحية وإننا لنرى أنه في كل عام وفي موسم الحج خاصة يحضر إلى مكة خيار أهل الأرض من عباد الله الصالحين الذين هم الثمرات الحقيقية لكل بلد.

4- أن يبعث فيها نبي التزكية والحكمة: بعد أن أتم سيدنا إبراهيم **﴿دعواته لأهل مكة جعل ختامها مسكاً حين دعا أن تكون مكة مبعث نبي عظيم يجمع لها بين خيري الدنيا والآخرة، فيصلح ظواهر أهلها كما يزكي بواطنهم- إن أطاعوه- فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾﴾**⁽⁶⁾، قال البروسوي: ("فيهم"، أي: في جماعة الأمة المسلمة من أولادنا، "رسولاً منهم"، أي: من أنفسهم، فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم، فهو الذي أجيب به دعوتهم، روي أنه قيل له: قد استجيب لك وهو في آخر الزمان)⁽⁷⁾، وقال الشوكاني: (وقد أجاب الله لإبراهيم **﴿هذه الدعوة فبعث في ذريته رسولاً منهم وهو محمد﴾**)⁽⁸⁾.

(1) سورة إبراهيم، من الآية: 37.

(2) البروسوي، روح البيان: 427/4.

(3) المدرس، تفسير: ج 63/10.

(4) سورة القصص، من الآية: 57.

(5) القرطبي، تفسير: 198/3.

(6) سورة البقرة، آية: 129.

(7) البروسوي، تفسير: 234/1.

(8) الشوكاني، تفسير: 144/1.

وقد ذكر رسول الله ﷺ بأنه هو المشار إليه بدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، عن العرbaz بن سارية قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: أنا دعوة أبي إبراهيم...﴾ (1)، قال القاسمي: (والمراد أن أول من نوه بذكره ﷺ وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام) (2).

وقوله "يتلو عليهم آياتك": يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة "ويعلمهم": بحسب قوتهم النظرية، "الكتاب": أي: القرآن، "والحكمة": ما يكمل به نفوسهم من المعارف الحقة والأحكام الشرعية، "ويزكيهم": بحسب قوتهم العملية، أي: يطهرهم من دنس الشرك وفنون المعاصي، سواء كان بترك الواجبات، أو بفعل المنكرات (3).

وبعد أن أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بناء البيت، أمره الله بدعوة الناس إلى الحج بقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (4)، فرقا سيدنا إبراهيم عليه السلام جبل أبي قبيس ونادى: (أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فحجوا) (5)، ومن هذا يتبين لنا أن دعوة سيدنا إبراهيم كانت دعوة عامة دون قيود أو شروط، وحين فرض الحج في الإسلام بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (6) كانت تلك الدعوة أيضاً دعوة عامة، وليس عليها قيد إلا الاستطاعة؛ لذا فلا يجوز لأحد أن يحول دون وصول أي قاصد للبيت؛ لأن ذلك المنع قد يدخل في الإلحاد في الحرم، وهذا ماسنوضحه في المطلب الآتي.

المطلب الثاني: تغليظ عقوبة المسيء

إن الأدب مع الأشياء المقدسة ذات المنزلة عند الله تعالى ليس كالأدب مع عامة الأشياء وإن كان كلاهما مطلوب ومرغب فيه، فالأدب مع الوالدين -مثلاً- واجب، والإساءة لهما من أكبر الكبائر، في حين

(1) ابن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني (ت: 241هـ)، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر: ج 4/ص 127، والبخاري، محمد بن اسماعيل، التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت: ج 6/ص 86 رقم 1736، والبخاري، محمد بن اسماعيل، التاريخ الصغير، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ط 1، دار الوعي - حلب، مكتبة دار التراث - القاهرة، 1397هـ - 1977م: ج 1/ص 13 رقم 33، وابن حبان، محمد بن حبان البستي (ت: 354هـ) الصحيح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ - 1993م: ج 14/ص 313 رقم 6404.

(2) القاسمي، تفسير: 1/129.

(3) القرطبي، تفسير: 2/89، والبروسوي، المصدر السابق: 1/234.

(4) سورة الحج، من الآية: 97.

(5) الطبري، تفسير: 27/144.

(6) سورة آل عمران، من الآية: 97.

يختلف هذا الأمر مع الإخوان أو عامة الناس، وكذلك الأماكن المقدسة التي خصها الله بمنزلة عليّة دونها سواها، فالطاعة فيها تضاعف كما أن الإساءة فيها تضاعف، وما ذاك إلا لقداستها ومنزلتها عند الله، ولكي تبقى أماكن مهابة لا يفكر أحد بالإساءة إليها أو التعدي على حرمتها، ومن تلك البقاع المقدسة حرم مكة المكرمة، وقد نعى سبحانه على الكافرين تجرؤهم عليه وذكر عقوبة من أساء فيه أو إليه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصِدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽¹⁾، قال ابن عطية (ت: 546هـ): (والإلحاد هو الميل، وهو يشمل المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على النية السيئة فيه، ومن نوى السيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا في مكة، هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم)⁽²⁾، قال القرطبي: (عن ابن عباس رضي الله عنهما: "ومن يرد فيه بإلحاد بظلم" قال: الشرك، وقال عطاء: الشرك والقتل، وقيل: معناه: صيد حمامه وقطع شجره ودخوله غير محرم)⁽³⁾.

وعن مجاهد قال: (كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان، أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم، فقل له في ذلك فقال: إنا كنا نتحدث أنّ من الإلحاد في الحرم أن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله)⁽⁴⁾، وعن عبد الله بن عمرو: (أيضاً قال: (الإلحاد في الحرم: ظلم الخادم فما فوق ذلك)⁽⁵⁾، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول: (احتكار الطعام بمكة للبيع إلحاد)⁽⁶⁾، وقال القرطبي: (ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى إنّ هذه الآية تدل على أنّ الإنسان يعاقب على ما ينويه من المعاصي بمكة، وإن لم يعملها، فقد روي عن ابن مسعود وابن عمر قالوا: لو هم رجلٌ بقتل رجلٍ بهذا البيت وهو بعدن أبين لعذبه الله)⁽⁷⁾.

(1) سورة الحج، آية: 25.

(2) الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت: 876هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج 3/76.

(3) القرطبي، تفسير: 24/12.

(4) الأزرق، أخبار مكة: 131/2-132.

(5) المصدر نفسه: 136/2.

(6) المصدر نفسه: 135/2.

(7) القرطبي، المصدر السابق: 25/12.

قلت: وقد كتب السيد محمد بن علوي المالكي بحثاً مفصلاً عند هذه المسألة خلص فيه رأيي نحسبه الصواب حين قال: (وعندي أنّ التوسط في القول أولى وهو أن نقول: إنّ العزم على المعصية بمكة المكرمة يُضاعف عقابه أيضاً كما يضاعف العقاب على نفس المعصية فيها بالمعنى المتقدم في مبحث تضعيف السيئات، وأما مجرد الهمّ بدون إصرار فلا شيء فيه)⁽¹⁾.

قلت: وهذا ما أميل إليه؛ لأنه يتناسب مع رحمة الله بعباده، وأنّ تلك المواطن المقدسة إنما وضعت لتكون مواطن رحمة لا مواطن عذاب، ولا سيما مع المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ لأنّ المؤمنين المعظمين للبيت الحرام ليسوا على مرتبة إيمانية واحدة، إذ لا يمكنهم جميعاً أن يسيطروا على أفكارهم ويحفظوها من الأفكار والخطرات السيئة.

ضرب من الإلحاد

عوداً على بدء نسترجع الآية الكريمة ونأملها كاملة ▶ إنّ الذين كفروا وَيَصَدُّونَ عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلمٍ نذقه من عذاب أليم ◀⁽²⁾، فقد ذكرت الآية الكريمة إساءة عظيمة وهي المنع من المسجد الحرام والمراد به مكة المكرمة، ثم ختمت بذكر الإلحاد في الحرم وكأنه سبحانه يقول: إنّ هؤلاء مع كفرهم وهو أمرٌ شنيعٌ قاموا بصد الناس عن المسجد الحرام وهو أمرٌ لا يقل شناعة عن الكفر، وهو إلحاد في الحرم.

ولذلك ينبغي علينا أن نعظم البيت الحرام بكل صور التعظيم ونتجنب أية إساءة له تدخل في الإلحاد، لأننا رأينا من خلال التاريخ قديمه وحديثه أنّ كل من أراد البيت الحرام بسوء سواءً كان جباراً عنيداً، أم فاسقاً مريداً عجل الله له العقوبة، وأذاقه من العذاب الأليم، وتلك العقوبة تكون على قدر نية الإساءة، ثم إنّ الإساءات تتنوع فمنها إساءات فردية، وإساءات جماعية، فمن الإساءات الفردية أنّ امرأة في الجاهلية أتت الكعبة تتعوذ من زوجها، فمد رجلٌ يده إليها بسوء فيبست يده فأدرك الإسلام وهو أشل، لأنه لم يحترم الكعبة⁽³⁾.

(1) المالكي، محمد: في رحاب البيت الحرام: 221.

(2) سورة الحج، آية 25.

(3) تنظر التفاصيل: الأزرق، أخبار مكة: 26/2، والحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري (ت: 40هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ-1990م: ج3/ص561، رقم: 6083.

وأما الإساءات الجماعية فقد قصّ علينا مؤرخو مكة كثيراً منها، وأشهرها قصة الملك تبع الثالث، فقد روي أنه جاءه نفرٌ من الهذليين وحسنوا له تخريب البيت قال ابن اسحاق فسار حتى إذا كان بالذّف من حمدان⁽¹⁾ بين أمج⁽²⁾ وعسفان⁽³⁾ دَفَّت بهم دوابهم وغشيتهم ظلمةٌ شديدة وريح، فدعا أحباراً كانوا معه من أهل الكتاب فسألهم فقالوا: هل هممت لهذا البيت بسوء؟، فأخبرهم بما قال له الهذليون، وبما أراد أن يفعل، فقالت الأحبارُ والله ما أرادوا إلا هلاكك وهلاك قومك، إنّ هذا بيت الله الحرام ولم يردّه أحدٌ قط بسوء إلا هلك، قال: فما الحيلة؟، قالوا: تنوي له خيراً: أن تعظمه وتكسوه وتنحر عنده، وتحسن إلى أهله، ففعل-أي نوى ذلك-فانجلت عنهم الظلمة وسكنت الريح⁽⁴⁾.

ولقد قصّ علينا القرآن الكريم إحدى تلك الإساءات الجماعية وذكر عاقبتها فقال ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾⁽⁵⁾، وهذا كله في العصر القديم.

أمّا في العصر الحديث فقد رأيت، بل عاصرت أفراداً ممن لا أحب ذكر أسمائهم أساءوا إلى البلد الحرام، فما أمهلهم القدر حتى ذاقوا من العذاب الأليم ما ذاقوه فكانوا عبرةً لمن اعتبر.

وفي مطلع الثمانينيات من القرن الميلادي المنصرم عُقدَ مؤتمر في الطائف تقرر فيه تقليص عدد الحجاج، وجعلهم بنسبة معلومة من كل بلد، وهي: من كل مليون ألفاً، بحجة التوسعة التي كانت آنذاك للحرمين الشريفين، وإني لأتساءل: من كان صاحب هذه الفكرة الخارجة عن شرع الله؟!، إذ إنّ شرعه واضحٌ حين دعا الناس إلى بيته الحرام بقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾⁽⁶⁾، ولم يضع إلا شرطاً واحداً بينه بقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾⁽⁷⁾، فانحصرت دعوة الناس لحج البيت بالشرط المعلوم، إذ لم يحدد الداعي نسبةً معلومة، لذا فإنني أرى أن التحديد على وفق النسبة كيفما كانت هو خروج عن شرع الله، وإساءة للبلد الحرام وبيت الله العتيق، وعلى ما أعلم، فإن كل الدول التي اشتركت في ذلك المؤتمر لم ترَ

(1) جبل بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة: الحموي، معجم البلدان: 161/2.

(2) بلد من أعراض المدينة. المصدر نفسه: 249/1.

(3) موضع بين الجحفة ومكة. المصدر نفسه: 121/4-122.

(4) الأزرق، المصدر السابق: 133/1. بتصرف يسير.

(5) سورة الفيل (كاملة)، الآيات: 1-2-3-4-5.

(6) سورة الحج، آية: 27.

(7) سورة آل عمران، من الآية: 97.

العافية، ولم يهدأ لها بال، وللخروج من ذلك الحال يجب إعادة النظر في مسألة تحديد النسبة، ومن أراد دليلاً واضحاً على دخول المنع للناس من خلال تحديد النسبة في الإلحاد فليتأمل ما يأتي:

1- الآية التي ذكرت الإلحاد في الحرم ورد في مطلعها إشارة واضحة إلى منع الكفار للمسلمين من الحرم، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِلْحَادِ بِظُلْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽¹⁾، ويبدو لي الاستدلال بها من وجهين:

- الأول: أنها ذكرت منع الكفار للمسلمين وشنّعت عليهم فعلهم، وجعلته معطوفاً على الكفر.

- الثاني: أنها صرّحت بأنّ المسجد الحرام جعله الله لكل الناس على حدٍ سواء .

ولست أرمي إلى تشنيع القائمين على خدمة الحرمين الشريفين بمن صدوا النبي ﷺ وأصحابه عن البيت، ولكنني أخصّ مسألة المنع فحسب.

2- روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ﴿سألت النبي ﷺ عن الجدر، أمّن البيت هو؟، قال: نعم، قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟، قال: إنّ قومك قصرت بهم النفقة، قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟، قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أنّ قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت وأنّ ألصق بابه بالأرض﴾⁽²⁾، فتأمل قوله ﷺ: ﴿ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا﴾، ترى إنكاره على ذلك الفعل واستهجانه له، فإذا أنكر ﷺ على من يقومون على خدمة البيت منع بعض الناس من دخوله وليس هو من مناسك الحج فكيف بمن يحول دون وصول الآلاف من المشتاقين إلى بيت الله الحرام؟

وخلاصة ما أوّد الإشارة إليه والتنبيه عليه جملة أمور:

1- النظر بعين التقدير والاحترام والإكبار للجهود الجبارة المبذولة من خادم الحرمين الشريفين وحكومته الموقرة لما يبذلونه من خدمة راقية للبقاء المقدسة، وذلك لا ينكره إلاّ جاحد أو معاند، بل يشهد له القاصي قبل الداني.

(1) سورة الحج، آية: 25.

(2) البخاري، الصحيح: 573/2، رقم 1507، ومسلم، الصحيح: 973/2، رقم 1333.

2- وجوب إعادة النظر في مسألة تحديد النسبة من أجل الخروج من التبعات الشرعية المترتبة عليها من الإلحاد بالحرم، فالابتعاد عن النسبة ابتعاداً عن المخطور، ولا سيما وأن النسبة وُضعت بسبب وجود مشروع توسعة الحرمين، وقد تمت بحمد الله.

3- إنَّ إلغاء مسألة النسبة لا تعني بالضرورة أن يقصد البيت الحرام أكثر من النسبة المحددة، بل ربما يقصده أقلّ منها، وإنَّ قصد البيت أكثر من النسبة بقليل أو كثير، فليس هناك من داع للخوف أو ضرر يخشى - إن شاء الله - إذا توفرت عدة أمور أبرزها:

أ- حكومة قائمة تسهر على خدمة الحرمين والحجيج.

ب- وجود قوات أمن بفصائلها ودوائرها العسكرية والأمنية كافة، تشرف على حماية الحجيج، على أن تحرص الحكومة على أن تكون تلك القوات غير مختربة أمنياً ولكل حكومة أساليبها الخاصة في توفير ذلك مع ما يتناسب مع حاجة تلك القوات الفكرية والمادية على حدٍ سواء.

ج- مسلمون متيقظون ناهون يسهمون في منع الحوادث الشاذة، والإبلاغ على محدثيها.

د- تجنب إثارة الشبهات حول الوافدين ممن ينوون الحج، أو العمرة، لما يؤديه ذلك من أثر عكسي في نفوس القاصدين مما يهيئ الفرصة أمام المتصيدين في الماء العكر أن يصطادوهم ويجعلوا منهم جنوداً للإحداث في الحرم، فإن كان هناك من ينوي الإساءة والإلحاد في الحرم فقد تكفل الله بسحقه ومحقه، ولا يتعارض هذا مع النقطة "ب"، بل يوجبها، لأنه تعالى قد يحقه بدون سبب وقد يحقه بيد القائمين على الحرمين.

4- إنَّ زيادة عدد الحجاج تعني بالضرورة زيادة الواردات الاقتصادية لبلاد الحرمين الشريفين، وليس ذلك فحسب، بل زيادة الواردات لجميع بلاد العرب والمسلمين.

وليس هذا الأمر مختصاً بالحج، بل ينبغي فسخ المجال أمام الزائرين من المعتمرين وفي أي وقت من أوقات السنة، فلا بد من رفع العراقيل، وإزالة الموانع، وإلغاء العوائق والعقبات التي تحول دون وصول كل قاصد إلى البيت الحرام، ولو أنَّ القائمين على هذا الأمر فتحوا الطريق وألغوا النسبة ولو لعامٍ واحدٍ - على سبيل التجربة - لرأوا خيراً كثيراً.